

نمط العمارة القصورية في ظل مراحل وجود الاستيطان البشري في إقليم توات

أ. ثياقة الصديق*

جامعة ابن خلدون - تيارت.

المخلص:

تنتشر مئات التجمعات السكنية العمرانية المعروفة بالقصور في هضاب وصحراء الجزائر ، يعود أقدمها إلى القرن الرابع الميلادي، وقد ارتبط استمرار هذه ازدهار هذه القصور بالتجارة حتى لسنوات مضت حيث يلاحظ تدهورها نتيجة هجرة السكان منها.

لم تبين هذه المدن والقصور نتيجة لرغبات شخصية، بل وجدت وازدهرت لضرورات حضارية آنذاك. فلقد أنشأت من طرف قبائل الرحل التي كانت تعتمد على طرق تنقل منتظمة ما بين عمق الصحراء ومدن الساحل، والتي بدورها ساهمت في ازدهار وتطور المدن الصحراوية، فرحلت الشتاء إلى عمق الصحراء وراء المناخ الملائم والمراعي الخضراء حيث العمل على جلب المؤونة والاستعداد للرحيل المعاكس للشمال بعد الرعي الجيد للماشية مع مطلع الصيف، هذا التنقل كان يستدعي وجود محطات راحة وتمويل و محطات للتبادل التجاري أيضا، إذًا تفسير ازدهار القصور الصحراوية.

الكلمات المفتاحية: القصر، العمارة القصورية، العمارة التقليدية، العمارة

الطينية، الاستيطان البشري، توات، الجنوب الغربي الجزائري.

المخلص باللغة الفرنسية:

Comme tous les autres districts sahariens, le « *touat* » au sud algérien repousse plus davantage qui il attire ses habitants, néanmoins , depuis la préhistoire, il a connu des exodes successives qui ont abouti à

* أستاذ الانثروبولوجية، بقسم العلوم الاجتماعية- جامعة ابن خلدون، تيارت.

la formation de stations peuplées dites « *kssour* » à vrai dire ,ce sont des lieux de regroupements de familles qui vivent en commun et cohérence, tandis que l'architecture de ces « *kssour* » varie et se distingue selon l'identité du groupe occupant , jetule, juif, musulmans , arabe ou berbère.

مقدمة:

إذا كانت الصحراء كظاهرة إيكولوجية يتقاسمها الوطن العربي من موريتانيا غربا حتى الإمارات العربية شرقا، فإن الجزائر بدون شك تحتل نصيبا من هذه الظاهرة في جنوبها، وأن مثلت البداوة والنشاط الزراعي نمطا لحياة سكانها، فإنهم في حالة استقرارهم سواء في الواحات أو على ضفاف المجاري المائية اتخذوا شكلا متشابهها لمساكنهم ومدنهم تقريبا، سواء من ناحية مادة البناء أو التنظيم الداخلي للفراغات، ويرجع هذا التشابه- رغم الاختلافات الطفيفة- في نمط العمارة الصحراوية إلى تشابه المناخ ووحدة الواقع الإيكولوجي، الذي يخضع له شكل العمارة بشكل أساسي ولاسيما العمارة التقليدية.

يعد إقليم توات أحد الأقاليم المتجانسة من الناحية البيئية والمناخية يمتد في جنوب غرب الصحراء الجزائرية والتي تعد جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى، وتبعد أقرب نقطة عن العاصمة الجزائرية بحوالي 1500 كلم جنوبا. يحتوي على مجموعة من التجمعات السكانية المنتشرة هنا وهناك أشبه بأرخبيل من الجزر في البحر، يعرف بـ"القصور"¹.

¹ - نستعمل هنا لفظ العمارة القصورية نسبة إلى القصر، والذي هو في الأصل نمطا للاستيطان البشري في صحراء المغرب العربي ككل، وليس مقصورا على الجزائر فقط، حيث يوجد هذا النوع من السكن في جنوب تونس والمغرب، كما يطلق عليه لفظ أو مصطلح "القصر" وهو قرية محصن أو بالأحرى مجموعة كتل سكنية مترابطة، ومتلاحمة فيما بينها يقطنها مجموعة أفراد أو مجموعة عائلات موسعة كثيرا ما تنتمي إلى أصول عرقية واحدة وطبقات اجتماعية مشكلة، وقد تكون مختلفة، يحيط بهذه التكتلات سور مدعم بأبراج ركنية في

يقول عنها ماركوت MrCot: "هذا الصنف من المدن يخضع من جهة إلى مناخ قاحل ومن جهة أخرى إلى مساحات خالية. هذان الظرفان يكسبها خصوصية كبيرة. نشأت هذه المدن من وظيفة المحطات على المحاور الكبرى للقوافل التجارية في العصور السالفة، وأخذت شكل المدينة-الواحة، لأن الماء والنخيل يشكلان قاعدتها الأساسية¹ مثلما كانا يشكلان قاعدة لملتقى تلك القوافل.

وان تشابهت العمارة الصحراوية، كما أسلفنا الذكر، لتشابه المناخ والواقع الأيكولوجي واستعمال مواد البناء المحلية، فإن هناك اختلافات شديدة من ناحية الشكل والفراغات الوظيفية في العمارة الطينية بإقليم توات، تبعا للشعوب والقبائل المهاجرة وفي الوقت نفسه المستوطنة لإقليم توات منذ فجر التاريخ حتى العصور الحديثة، إذ نجد لمسات معمارية لكل شعب أو جماعة اجتماعية مستوطنة تظهر بشكل واضح في عمارتهم، لذلك تعددت وتنوعت العمارة القصورية في توات رغم أن البيئة واحدة. نحاول في هذه الورقة البحثية توضيح أشكال ومراحل الاستيطان البشري بإقليم توات منذ فجر التاريخ، مروراً بهجرات القبائل الزناتية واليهودية، ثم العربية فيما بعد؛ وتبعاً لهاته الأجناس البشرية المهاجرة والمستوطنة لإقليم توات تنوع نمط وشكل العمارة الطينية من عمارة بربرية ويهودية إلى عربية إسلامية. وبذلك تنوعت أشكال القصور الصحراوية.

زويا، وقد تخلوا بعض القصور من ذلك ليعوض عنه بجران البيوت الخارجية، لتشكل في النهاية ما يشبه سور يحيط بكل أرجاءها.

¹ - مارك كوت، اختيار فضاء اختيار مجتمع، المدينة وتنظيمها الحضري، مجلة مارينو، سنة 1999، العدد،

• التعريف بمجال الدراسة:

يقع إقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية أحد أجزاء الصحراء الإفريقية الكبرى، وتبعد أقرب نقطة عن العاصمة الجزائرية بحوالي 1500 كلم جنوباً¹، يحدها من الناحية الشمالية العرق الغربي الكبير، ومنطقة "تينكورارين"² وكذا "وادي الساورة" وعرق الراوي، ومن الناحية الغربية وادي مسعود، حيث تنتشر مياهه في رمال عرق شاش، الذي يحد الإقليم من الناحية الجنوبية الغربية، وشرق توات هضبة تادمايت و منطقة تيدكلت³، وجنوب شرقها سبخة مكرغان وتزروفت.⁴

ويجد الباحث صعوبة في تحديد إقليم توات نظرا للتشابه الكبير للوحدات والقصور الكثيرة المكونة له، وهو ما نلفيه لدى الكتاب القدامى الذين درسوا هذا الإقليم، وكذا الاختلاف الكبير بين هؤلاء الكتاب في تحديد جغرافيته، وفي هذا الصدد يرصد عبد العزيز القشتالي⁵ في مؤلفه "مناهل الصفا" أهمية من حيث تموقعه الجغرافي الإقليم في القرن 16م قائلا: "إقليم توات أوسع وطنا، وأفسح مجالا و أقرب إلى السودان اتصالا وجوارا". أما العياشي فيحدد توات من الناحية الشمالية فأول عمالتها قرى تسابيت، وأول قرية منها هي "عريان الرأس". وهنا

¹ - فرج محمود فرج. إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. الجزائر، 1977ص01.

² - تينكورانين تعني باللغة الامازيغية المعسكرات وهكذا يسميها ابن خلدون وهي منطقة مأهولة بالسكان يوجد بها ما يزيد عن تسعين قصرا حسب الرحالة الألماني "جبرار رها فلس" وحدائق النخيل - انظر حسن الوزاني . وصف أفريقيا ج2.ص:133، وتعرف بمنطقة "القرارة" عاصمتها تيميمون.

³ - تيدكلت: مصطلح بربري تعني راحة اليد (الكف). تقع أقصى الشرق من الواحة التواتية وبين الهقار بلاد الطوارق. وتوات تنتشر بها واحات النخيل وحوالي 50 قصر وتنقسم تيدكلت الى شرقية عاصمتها "عين صالح" وغربية عاصمتها "أولف".

⁴ - P. Devoirs, le Touat étude géographique et Médicale archives de l'instituteur. T.XXV.N°3-4. Septembre-De'cembre.alger1947.P224

⁵ - عبد العزيز القشتالي: هو أبي فارس عبد العزيز بن محمد القشتالي المولود بضع وخمسين وتسعمائة الموافق لسنة 1543. توفي سنة 1031هـ الموافق ل 1621. انظر عبد السلام بم عبد القادر ابن سودة المري دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج1- دار الكتاب -الدار البيضاء ط2-1960-ص161.

يقر العياشي بالفصل ما بين تينكورارين و توات جاعلا حدودها من الناحية الشمالية، منطقة تسابيت، مثله مثل ابن خلدون فلا يطلق لفظ توات على كل المنطقة، بل يحصرها في المنطقة الوسطى المعروفة حاليا بـ " توات الحناء " الممتدة من مدينة أدرار إلى رقان جنوبا. وهنا يفصل بين منطقة توات وتيديكيت، إذ جعل رقان هي آخر مجموعة لحدود توات من ناحية الجنوب، وهكذا يتبين لنا أن اسم توات يطلق على الأقاليم الثلاثة المكونة له لشهرتها ولكثرة القرى والقصور بها على غرار المنطقتين (تيديكيت، وتينكورارين "قورارة"). ونحن هنا بصدد البحث عن العمارة والاستيطان بإقليم توات، قاصدين به كافة قصور منطقة توات بأقاليمها الثلاثة تينقورارين (منطقة قورارة) وتوات الوسطى ثم منطقة تيدكلت (أولف). وأن الأقاليم الثلاثة لكل منها مميزات جغرافية وبشرية خاصة بها وفي الوقت نفسه تشترك في سمات ثقافية عدة.

يحتوي هذا الإقليم على أعداد هائلة من القصور على شكل هلال أشهرها قصر تمنطيط الذي يعد آنذاك عاصمة الإقليم إلى غاية القرن التاسع عشر، لما انتقلت الزعامة إلى قصر أدرار. تزيد تلك الواحات والمدن والقصور عن 350 واحة متناثرة هنا وهناك على رمال الصحراء، أشبه بالأرخبيل في البحر، والإقليم حاليا يقع ضمن إقليم ولاية أدرار وجزء من ولاية تمنراست، وبذلك يمتد من قصور تيميمون غربا، حتى عين صالح شرقا، ويقسم إلى ثلاث مناطق، تعرف المنطقة الأولى باسم منطقة قورارة (تيميمون)، والثانية (ادرار) وتعرف باسم منطقة توات الوسطى، والثالثة باسم منطقة تيدكلت (أولف)، وتعرف المناطق الثلاثة مجتمعة بـ " إقليم توات".

وتمتد مدن وقصور الإقليم في سهول رملية جنوب العرق الغربي الكبير حول هضبة تادمايت من جهاته الثلاثة الشمالية والغربية والجنوبية، وينتهي بالإقليم ثلاثة أودية تصب مياهها فيه لتغذي الفقائير والآبار بالمياه التي بعثت الحياة في هذا الجزء من الصحراء، وهذه الأودية هي واد " أمقيدن " الذي ينتهي

بمنطقة تيدكلت، والذي يعتبر امتدادا لواد "سفور" الذي ينبع من المنبوعة ويتجه غربا حتى تتلاشى معالمه بعض الشيء ثم يظهر من جديد باسم واد "شيدون" مستمرا في سيره غربا إلى أن ينتهي بمنطقة قورارة مكونا سبخة تعرف باسم سبخة "القورارة"، أما الواد الثاني وهو "وادي مسعود" فيتكون من اتحاد وادي "جير" مع وادي "زوسفانة" عند منطقة "فقيق"، ثم يتجه نحو الجنوب وهنا يطلق عليه اسم واد "الساورة"، أما الواد الثالث وهو واد "قاريت" من الشمال الشرقي لمنطقة تيدكلت، ويتجه جنوب غربها حتى يصل في نهايته بوادي مسعود ويصبح رافدا له.

1- أشكال ومراحل الاستيطان البشري الأولى بإقليم توات:

تشير الأبحاث الأثرية والدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها العالم "إيجو HEGO" بمنطقة أولف بنواحي منطقة تيدكلت سنة 1955م، إلى إن هذه المنطقة قد عرفت حضارة الحصى والصناعات الحجرية¹. كما إن العينات المختبرة أثبتت وجود وتعايش الإنسان في هذه المنطقة قبل التاريخ، وما اكتشف بالكهف الموجود بمقيدن شمال شرق مدينة تيميمون من رسومات لا تختلف عن التي اكتشفت في التاسيلي والهقار "وقد اكتشف فيه عظاما مصقولة تستعمل للقتص وقضاء مآرب الإنسان القديم، على أن الإنسان في تلك المنطقة قد عايش العصر الحجري القديم وشارك في صنع تاريخه، لكون هذا العصر يعتبر من أطول العصور الحجرية، ومن ناحية أخرى دلت الاختلافات الشكلية لأنماط العمارة القصورية على إن هناك عدة أجناس تعاقبت على المنطقة بدليل تنوع وتعدد شكل وفضاءات تلك المباني والأحياء المعدة للسكن عبر الزمن وعلى مراحل متعددة، ومن المسلم به إن هذه المراحل لأشكال الاستيطان الإنساني لم تحدث بين عشية وضحاها؛ إنما استغرقت كل مرحلة قرون عدة، ورغم تباعدها

1- حاج أحمد الصديق، التاريخ الثقافي لإقليم توات، من القرن 11هـ حتى القرن 16 (ق 17، ق 20)، دار الثقافة

لولاية أدرار، 2003، ص 15.

من الناحية الزمنية فإن هناك عاملاً أساسياً واحداً تعلقت به؛ إذك وجود تلك التجمعات قرب المنابع المائية، فقد أدى واد **جير** (الساورة) دوراً أساسياً في الحفاظ على حضارة توات القديمة لاسيما تلك التي تركت لنا أثراً تتمثل في الحيوانات المتحجرة.

1-1- مرحلة ما قبل التاريخ والاستيطان الجيتولي:

يعتقد "جسال GSEL أن توات قد استوطنتها شعوباً من أصل بيض من حوض البحر المتوسط في القرن 6 ق م¹، فضلاً عن الرومان الذين اتخذوا طريق توات أثناء مرورهم إلى **فغيغ** وبلاد **السودان** في تلك الفترة. ولا شك أنه يقصد **الجيتول** وذلك لتزامن الفترة التاريخية. والمراد باللفظة -**الجيتول** - تلك القبائل الضاربة ما بين المحيط الأطلسي غرباً حتى فزان شرقاً فهي متعددة الأصول، جمعها إطار جغرافي متجانس نسبياً يتمثل في السهول والمرتفعات الجنوبية وحواف الصحراء الشمالية؛ أي الإقليم الواقع بين التل والصحراء المتميز بالاقتصاد الرعوي² ومن ثم اشتهر **الجيتوليون** في تاريخ المغرب القديم بكونهم رعاة نموذجيين حتى شبههم المؤرخ "استرابون" بالعرب البدو ذوو الأبقار الكثيرة العدد، غير أن بعض **الجيتوليين** كانوا جبليين عتاه تمسكوا بسلسلة الأطلس الصحراوي الموازي لسلسلة الأطلس التلي، فهم بذلك أقوى الأمم الليبية على الإطلاق على حد رؤية "استرابون".

وقد وجاء وصف بعضهم عند "بلينيوس" بولاية موريتانية الطنجية: "بأنهم قوم متحركون ينتظرون الفرص لاجتياح أراضي جيرانهم. أما "بومينونيوس"، فيصف أوطانهم بأنها تمتد غربي مصر وشمال إثيوبيا وأنهم

1- مقدم مبروك، الاستيطان والتوطين بأقاليم توات، نماذج حول إقليم توات وقورارة، وتيدكلت، دار الغرب للطباعة والنشر، وهران 2003، ص 15.

2- نفسه، ص 17.

شعب كثير العدد، ويذهب "بظلموس" 1 إلى أنهم قومن منتشرون جنوب الولايات الإفريقية والموريتانية بمحاذاة موريتانية القيصرية ونوميديا. يبدو من خلال ما سبق إن بلاد الجيتول ممتدة عبر خارطة جغرافية تبدأ من المحيط الأطلسي إلى فزان، ممثلة إقليميا انتقاليا مابين الصحراء الكبرى وشريط التل الساحلي مشتملا على الواحات والوديان والشطوط والمرتفعات، كما أنه يشكل إقليميا رعويا هاما لبعض الزراعات المحدودة في بعض من جهاته. ومن الوجهة السياسية كان الجوتوليون يمثلون شريحة سكانية مندمجة مع الشمال نسبيا من الناحية الإدارية فهم "موريطانيون" 2 في الناحية الغربية الجنوبية، و"نوميديون" في السهوب والمرتفعات الجنوبية الجزائرية والتونسية.

ظل الجيتوليون يكونون مصدر قلق للسلطة الرومانية وخاصة مع المؤسسات الزراعية في الأقاليم التي ألفت القبائل الجيتولية الإنتاج فيها، كما أنهم ظهروا في جيش "حنبل" القرطاجي خلال الحرب البونيقية الثانية، وورد ذكرهم في جيش ماريوس، ويرى "كامبس" إن الجيتوليين أحفاد مربي الأبقار الذين ظهروا فيما بعد، ويقال أنهم ألقوا الانتقال نحو الشمال عبر العصور عندما تحل مواسم الرعي في بلاد التل فخلفوا لنا آثارهم الجنائزية ذات الطابع الإفريقي" 3، هذا المعطى يتماشى إلى حد بعيد وما ركن إليه "غزيل" في قوله أن: "الجيتوليون يمثلون حدا فاصلا من الناحية الانثروبولوجيا بين الجنس الزنجي الإفريقي والجنس الأبيض. وقد سجلت لنا الكتابات التاريخية القديمة أسماء مختلفة للشعوب التي سكنت الشمال الإفريقي، وأبرزها "النوميديون"، و"الموريطانيون" و"الجيتوليون"، ويحازيهم "الفاروزيون" في جنوب المغرب

1- ستارون، بلبنوس، بظلموس، هاؤلاء مؤخون رومان، ينظر مقدم مبروك، المرجع نفسه، ص18.

2- كانوا منقسمين بين دولة موريطانيا ونوميديا الغربية.

3- مقدم مبروك، المرجع السابق، ص20.

و"الغرامنت"، وقد وصفهم مارتين G.martin في كتابه les oasis Sahariennes، انثربولوجيا قائلًا: "إن الجيتوليين لهم وجوه عريضة وأنوفًا مفلطحة وبشرة سمراء وشعر مجعد ومناكب قائمة"¹، أما نمط عمارتهم فأفريقي، و الذي سيلي ذكره بالتفصيل لاحقًا.

1-2- مرحلة فجر التاريخ و استيطان القبائل الزناتية:

توالت الهجرات الزناتية بنهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلاديين للمناطق التواتية ليستوطنوا بها فخطوا القصور والفقاقير وقد كان قدمهم واستيطانهم على حافة واد جير. ويشير بعض المؤرخين المحليين أن زناتة قدموا من "سلجاسة" إلى توات على ثلاثة عشر مرحلة للاستيلاء على قصور توات وكانت معسكرها في أول مرة ببودة، وفي المرحلة الأخيرة وجدوا واد "قير" قد جف فسكنوا على حافته ونزلوا بقصور: "بودة، تيطاف، تسابيت، أولاد إبراهيم، تسفا وت، تيلان" من قصور توات. أما تنكورانين² فقد نزلوا بها، بعد ما قدموا من وارقلان فاستقروا بقصور تيميمون (القصر، أولاد إبراهيم، وأولاد سعيد، أولاد عيسى، تنركوك، قصر قدور، وأغزر) وغيرها من قصور هذه الناحية.

أما من الناحية الجنوبية فقد نزلوا في "الطريق الشرقي من ورجلان(ورقلة) وعين صالح، ثم أولف واستقروا في قصر اقبلي، وتيط وقد تمكنوا من خط بعض القصور، والفقاقير في الأماكن التي لازالت بها لغتهم لم تندثر خاصة في تيميمون، أولف، تيطاف، وبودة"³ ثم نشطت الهجرات الزناتية في هذه المناطق خاصة بعد سقوط دولتهم مما دفع بهم إلى النزول للصحراء حفاظا على أنفسهم

¹ - توجد كتابات هامة هي عبارة عن رسومات ونقوش على الصخور بالهضاب الموجودة بمنطقة تيدكلت الغربية، وهي في الأصل رسائل متبادلة بين القوافل التجارية مكتوبة بلغة تيفناغ، انظر المرجع السابق، ص 20.

² - الاسم القديم لإقليم قورارة، وعاصمته تيميمون.

³ - وادي الحنة: يضم حاليا بلديتي زاوية كنتة وانزجمير جنوب ولاية ادرار.

وهربا من بطش المرينيين لهم ومآزرة إخوانهم في الجنوب ضد غيرهم من المعتدين عليهم.

سلك للمؤرخ التواتي - محمد بن عبد الكريم البكرابي في مخطوطه درة الأقاليم المسلك ذاته قائلا أن " زناتة فروا إلى توات بعد انهيار دولتهم في القرن الرابع الهجري (10 ميلادي) وأنهم اتجهوا صوب القبلة بعد ان قطعوا ثلاثة عشر رحلة من سلجماسة ونزلوا بأرض بوودة واستقروا هناك وحفروا الآبار واستعملوا واد مسعود مرعى لمواشيهم فوجدوا أن المكان آمن يصلح للسكن، فسكنوا وتوطنوا توات"¹

وهكذا استمرت هجرة القبائل الزناتية إلى الصحراء والاستيطان فيها بحثا عن الأمن و الأمان، نظرا لبعد الإقليم عن مركز العمران ووقوعه في قلب الصحراء فقد بقي هناك بعيدا عن مسرح النزعات والحروب التي شهدتها المغرب العربي وخاصة بعد رحيل الفاطميين عنه، لذلك فقد اتخذه كثير من الأهالي ملجأ لهم فرارا من وجه أعدائهم، أو هربا لعدم رضاهم عن الأوضاع السياسية عندهم وفضلوا سكن صحراء على الخضوع لحكامهم، وعند منتصف القرن الثاني عشر ميلادي وبعد قيام دولة الموحدين وما نتج عن ذلك من تعقب للموحدين للفرع الزناتي من القبائل البربرية دفع بأعداد كبيرة من قبيلتي مغراوة، وبني يفرن بعد قتل أميرهم مسعود بن وانة المغراوي إلى الهجرة للصحراء حيث نزلوا بناحية القورارة، و"وادي الحنة"بالإقليم التواتي.

وعلى خلاف الجيتول الذين سكنوا الكهوف والمغارات، ومباني طينية ونحتو في الجبال بيوتا في غاية البساطة لم يبق لها أثراً اليوم، فإن زناتة هم المؤسسون للقصور الصحراوية وما هي عليه اليوم من شكل هندسي ومعمار فني

1- البكرابي محمد بن عبد الكريم ، درة الأقاليم، مخطوط موجود بخزانة تمنظيط، الورقة الثانية، الوجه الأول.

و أداء وظيفي، فمما من شك أن الهجرات العربية الإسلامية فيما بعد واليهود من بعدهم أضفوا بعض التعديل والزيادة في شكلها.

1-3- هجرات القبائل العربية:

تجمع الدراسات التاريخية حول منطقة توات والتي تعتبر جزء من صحراء المغرب، على أن سكانها هم برابرة لكنهم شهدوا هجرات عربية متتالية مع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ثم شهدت موجات هجرات القبائل الهلالية التي عبرت سكانه عبر التاريخ نتيجة استيطانها بإقليم توات. "فبعد إن تم فتح مصر انطلقت القبائل العربية لفتح بلاد المغرب وتمكنت من السيطرة على برقة و زويلة وفزان، حيث استقر بعض جندها يدعون إلى الإسلام. وفي 27هـ/647م قام العرب أول حملة حقيقية على إفريقية بقيادة عبد الله بن أبي سراج دعا إليها الخليفة عثمان بن عفان، فتقاطر الناس من مختلف القبائل للاشتراك فيها وكان أكثرهم من القبائل التي تقطن بالمدينة"¹.

ولقد أقام بنو هلال من عرب قيس الباديين إمارة عربية شملت وادي "مجردة" واستقروا "بطبرقة" كعاصمة صغيرة أقاموا بها الحصون المسيطرة على التجارة. " ثم امتد نفوذهم في الصحراء لقبائل صنهاجة واللتمون الذين كانوا متاخمين لتلك المناطق الصحراوية، نظرا لإيلاف القبائل العربية الهلالية التنقل في كامل أنحاء بلاد المغرب ومنها الصحراء التي كانت موطن إحدى بطون هذه القبائل فكان لها انتشارا واسعا بها مثل بطون "رياح" التي كانت دائمة الحركة والتنقل من بلاد

1 - من بني هاشم عبد الله ابن عباس ومن بين تميم عبد الله ابن أبي بكر وعبد الله بن أبي طلحة في عدة من قومه. ومن بين عدي. عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن زيد بن الخطاب. وعاصم بن عمرو، بعدة من قومه. ومن بني أسد عبد الله بن الزبير في عدة من قومه ومن بني سهم عبد اله بن عمرو بن العاص. وعبد المطلب بن وداعة في عدة من قومه. انظر، مصطفى ابوضيف احمد، اثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين. (524- 876هـ/1130- 1472م) الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ص.

الجريد إلى القيروان، ومن المسيلة إلى ورقلة ولهم قطاع بالحضنة ونواحي قسنطينة وبجاية، ويبعدون الرحلة في القفار والرمال ويسخرون الزواود في صراعهم مع بعضهم، وكذلك قبيلة "زغبة" إخوة "رياح" أبناء أبي ربيعة بن ناهيك بن عامر نزلوا عند دخولهم أفريقية بنواحي طرابلس وقابس وتحالفوا مع الموحديين وأقاموا مع بني باديس الزيانيين واستقروا ما بين المسيلة وقبلت تلمسان في القفار¹.

ومن المجموعات البشرية التي استوطنت إقليم توات وقصوره. قبيلة "المعقل" التي رافقت قبائل الهالبيين؛ ونظرا لقلّة عددها نزلوا بالمنطقة التي تلي "ملوية" ورمال "تافيلالت" وجاوروا زناتة في القفار وحالفوهم حتى كثر عددهم وعمروا صحاري المغرب، وتغلبوا على فياقيه ومن بقي منهم بإفريقية كانوا من القلة حتى اندرجوا في بني كعب. ثم ازدهرت جموع "المعقل". وبعد انتقال زناتة المغرب إلى الأمصار والمدن تفردت قبائل المعقل بالبيداء وملكوا قصور زناتة بالصحراء مثل قصور "السوس" و"توات" و"تمنطيظ" و"وركلان" و"تسابيت" و"تينكورارين". وكل منهما تشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وعيون وأكثر سكانها من زناتة، وفرضت عليهم قبائل المعقل الأتاوات وصارت لهم جباية يعتدون عليها ويعطون الصدقات للدولة المرينية في حالة قوتها، لهم الخيار في تحديد قيمتها ويسمونها جمل الرحيل.

2- أنماط العمارة القصورية في تمنطيظ:

2-1- العمارة الإفريقية:

ظهر هذا النوع من العمارة في المرحلة الجيوتيلية (100 قبل الميلاد) فالجيوتوليون الذين استوطنوا إقليم توات قديما، لاشك أنهم أسسوا حضارة وأقاموا

¹ - نفسه، ص 60.

مدناً ونحتوا سماتها المعمارية المميزة. وهذا ما وقف عنده المؤرخون الإغريقيون والرومان أمثال "هيرودوت" وهم سكان بيض أصحاب المهن، وقد كانوا يسوقون الذهب من السودان الغربي نحو بلاد المغرب (شمال إفريقيا) لذلك سميت طريق الذهب، ويرى نذير معروف " أن السكان الأصليين لإقليم توات هم جيوتيلين كانوا قد تأثروا بعمارة السكان الأفارقة بدليل أنه وجد أصنام مماثلة على ضفاف واد النيجر"¹. ومن سمات العمارة الإفريقية الشكل المخروطي والهرمي للأبراج والأضرحة، وقد تأثرت العمارة القصورية بالعمارة السودانية نتيجة التلاقات الحضارية الناتجة آنذاك عن الحركة التجارية الدؤوبة بين الحضارات الإفريقية والقصور الصحراوية.

2-2- العمارة البربرية:

وهناك من يسميها بالعمارة "البرمكية" تتموضع في مكان مرتفع تبنى من الحجارة والطين؛ أي من المواد المحلية التي تبنى بها القصور عموماً، لكنها تختلف وتتميز في هندستها وفضاءاتها الداخلية متكونة من أزقة شديدة الضيق والتعرج، ومساكنها متصلة مباشرة بالسور الخارجي وتخلو من الرحبة التي تتوسط القصر وبها أبراج ركنية في الزوايا، ومن أمثلتها قصر "بوعلي" ببلدية زاوية كنتة وقصر سالي و تيمادانين، و تاوريت ببلدية رقان تظهر فيها السمات الدفاعية بشكل بارز وجلي للعيان.

و القصور التي على نمط العمارة البربرية، هي عبارة عن مباني شُيّدت من حجارة ضخمة من الملح المخلوط بالطين وتلك ميزتها الأساسية، أما تخطيطها فهو غير دقيق لعدم وجود السور المحيط بالقصر، وإن كانت هناك قصور يحيط

¹ - ' l'imaginaire historiographique entre conjectures et réalités ' NADIR MAROUF -
ou le problème des sources : à propos de l'établissement humain en milieu saharien.
Insaniyat, revue algérienne d'anthropologie et de sciences sociales N°2 AUTOMNE -
. P159,1997

بها سور متصل بالمساكن؛ وبالتالي افتقارها لممشى السور، ويرجع تشييد هذا النمط من القصور حسب أشالي CHALIER " إلى ما بين (القرن 7-9هـ/13-15م).

2-3 - العمارة اليهودية:

تكون في الغالب ذات شكل دائري، تبنى من نفس بناء المواد المحلية الموجودة (الحجارة+الطين) وتختلف في شكلها عن العمارة البربرية بشكلها الدائري والبرج الواحد الذي يتوسطها وهي عبارة عن قلعة، تتموضع فوق مرتفع تتكون من أزقة رئيسة وأخرى ثانوية ومساكنها بها حجرات تحت أرضية (دهاليس)، مثل قصر "تاظولت" بزواوية كنتة وبعض قصور **تمنطيط**. إلى جانب هذا عرفت توات "هجرة بعض العناصر اليهودية ما بين القرنين الأول و السادس الميلاديين (100م - 600م) إثر نكبتهم على يد القائد الروماني (ثراجا) فبنوا قصورا ونشروا ديانتهم في أواسط السكان الأصليين، وقد عثر على بعض معالم تلك البناءات سنة 1905 في إطار الأبحاث التي كانت تقوم بها فرنسا على صنم يعود لليهود".

ومن الثابت تاريخيا أن قصر **أولاد همالي** وقصر **أولاد ميمون** وهما إحدى قصور **تمنطيط** أسسهما اليهود ما بين الفترتين التاريخيتين 2 و 6 م. و يدل على ذلك المعبد اليهودي في قصر **أولاد همالي**، إذ عثر على حجر منحوت عليه بالعبرية، قد يكون نحت على الأصح سنة 517م. وقد حول المعبد في القرن 16م إلى مسجد من طرف القبائل العربية التي سكنت **تمنطيط**، كما وجد في مدينة **تمنطيط** صخرة نُحِتت عليها كلمات بالعبرية في إحدى المنازل بقصبة أولاد داود، و العمارة اليهودية هي النمط الثاني حسب تصنيف أشالي وينقسم بدوره إلى قسمين وهي :

- 1- القصور المبنية فوق مرتفع طبيعي مع ملاحظة سور محكم البناء يحيط بها، ونادرا ما يحتوي السور على برج للمراقبة يتقدم المدخل الرئيسي للقصر، يتخذ السور شكلا دائريا، و ذو أضلاع منحنية ومتعددة الرؤوس.
- 2- يشبه القصر الأول(السابق رقم واحد) وموقعه الجبال والمناطق العالية التي يتم تهيئتها، لكن من الصعب تمييز الصنفين من الخارج لكنهما يختلفان في توزيعهما الداخلي⁽¹⁾.

هذا النمط من القصور يعتبر الأقدم من نوعه، وهو عبارة عن قلاع وحصون، و إن اشتمل على المعالم الدفاعية كاختيار الموقع المرتفع والأبراج فإنه يخلو من الفندق لأن الفندق من السمات المعمارية الإسلامية.

2-4- العمارة العربية الإسلامية:

عني المسلمون بتشييد المدن وبناء الأمصار في كل إقليم أقاموا فيه أو بلد فتحوه، طابعينه بطابعهم المعماري الإسلامي" ولقد اهتموا بالتدقيق في اختيار موقعهم وتخطيطها بل امتدت عنايتهم إلى التكوينات المعمارية بأشكالها الجمالية باعتبار أن الشكل يتبع الوظيفة". فالعمران في المنظور الإسلامي وجهين متكاملين، الأول هو الوجه الاجتماعي حيث تتأثر العمارة بالمجتمع ويتأثر بها، والثاني هو الوجه الخاص حيث تأثر العمارة بالفرد وتأثره بها، فالمدينة الإسلامية ناتجة عن أسس مقدسة مثل المدينة المنورة، مكة المكرمة، مدينة القدس، كربلاء في بغداد، لذا تشكل العبادة فيها المحور الأساسي في العلاقات الاجتماعية وبالتالي تتحكم في الشكل المعماري، ولقد تميزت مدن المغرب العربي عن مثيلاتها في المشرق العربي بكونها ذات نشأة محدثة، ولم تقم إلا نادرا على بقايا مدن قديمة، فأغلب المدن التي نشأت بالمغرب العربي كانت نواتها الأولى ذات أهمية دينية (ضريح، مسجد، زاوية....)، ذلك أن التجمعات المغاربية تبدأ

¹ - بوعلاية جلول، قصر تمنظيط دراسة أثرية ومعمارية، مذكرة تخرج لنيل شهادة مهندس دولة في الهندسة المعمارية، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية، قسم الآثار، الجزائر، 2005، ص18.

تسميتها بكلمة "سيدي" وهو أمر غير مألوف في المشرق العربي، مثل سيدي عقبة ببسكرة، سيدي لخضر بمستغانم، سيدي يوسف بأدرار، سيدي الحاج بلقاسم بتيميمون.... الخ، أما مدن المشرق العربي فقد خُصت بتسمية ترجع لمؤسسها الأول أو المؤسسّة من أجله.

ومعظم القصور الصحراوية التي لازالت على هيئتها الحالية من الناحية المعمارية والوظيفية، ذات الطابع المعماري الإسلامي الذي يتميز في تخطيطه العام بالشكل المستطيل أو المربع، محاط بسور وخنق أحيانا، يخلو هذا النمط تماما من الأبراج الركنية عدا برج أو اثنتان للمراقبة ويتم الوصول للقصر عبر الجسر لان الخندق يحيط به من كل الجهات، عمارته متقنة وذات زوايا حادة قائمة، ولاشك أن هذا النمط ظهر بعد الفتح الإسلامي العربي لبلاد المغرب، وهجرات القبائل الهلالية للمنطقة، في القرن السابع الميلادي - الأول هجري.

كما "إن هناك نمطا آخر من القصور يصنف ضمن العمارة العربية الإسلامية، مبني بالآجر والطين غير المشوي، ذو الشكل المستطيل، وقد يضم أروقة و دكانات للاستراحة، يتميز بأبراج ركنية و ممشى السور، وقد يتلاحم و يتداخل قصران أو أكثر، ينتميان إلى أنماط مختلفة مكونة قصراً واحداً، ظهر هذا النمط في القرن التاسع هجري /15 م، وأغلب الظن أن هذا النوع ظهر مع اكتشاف الفقارة لأن هذا النوع من القصور يفتقد للقاعدة الصخرية(المرتفع)، سواء كانت هضبة أو جبل، الذي كان أساس كل بناء في الصحراء ليس لمهمة دفاعية"¹، بل فرضتها ضرورة إيكولوجية؛ وهي ظاهرة فيضان الوديان وصعود المياه في تلك المنطقة آنذاك، لكن مع نقص المياه وتراجع هذه الظاهرة و طول فترة الجفاف بالمنطقة أدت إلى استعمال تقنية سقي جديدة تعرف بالفقارة؛ و هي مجموعة من الآبار المتصلة ببعضها البعض عن طريق خندق أرضي ينتهي

¹ - جاسم الدباغ : مداخلات الملتقى الوطني حول المجال و السكان يوم 15/14 ابريل 2005 جامعة وهران

بساقية لسقي المزروعات، تمر بالقصر قصد استعمال الماء في وظائف متعددة، يتطلب ذلك أن يكون القصر في موقع مساو مع الأرض أن لم نقل منخفض قصد إمكانية جر الماء إليه عن طريق ساقية ومنه إلى الواحة، لذا جاء هذا النوع من القصور بدون مرتفع صخري.

الخاتمة:

من خلال ما سبق يبدو أن إقليم توات طاردا للسكان أكثر منه جاذبا لهم، ورغم ذلك شهد تعميرا واستيطان بشريا نتيجة الهجرات البشرية له، لذا شكلت الهجرة ودلالاتها اللغوية، والقداسية والرمزية وما تحمله من معان لتلك الجماعات المستوطنة لفضاء توات مرجع هوياتي لتلك الجماعات البشرية المستوطنة، وعن طريقها حولته إلى أرخبيل من المدن والقصور، فقد تعددت وتنوعت أشكال العمارة القصورية تبعا لتنوع وتعدد هويات الشعوب المستوطنة.

غير أن تجمع السكان بالصحراء قديما، لم يكن مقتصرًا على الهجرة وحدها، بل كان مرتبطًا بحركة النقل التجاري المسماة بالنقل الصحراوي، الذي اتخذ اتجاه منطقة السودان وشمال إفريقيا عامة محاورا لنفوذ، إلا أن هذا الترحال كان يستقر به الحال قرب مجاري و عيون مائية، أو حتى آبار، مشكلا ملتقى لهذه القوافل التجارية والتي أصبحت فيما بعد تجمعات سكانية تعرف بالقصور، كانت وظيفتها بالأساس الراحة والتمويل لتلك القوافل ومركزا للتبادل التجاري بُنيت في الأصل على شكل قلاع وحصون "آغام"- ولا زالت أطلالها إلى اليوم شاهدة على ذلك- ثم أخذت شكل القسبة بعد إنتشار الإسلام في المنطقة، وأخذت شكل المعمار الإسلامي.

إن استقرائنا لأنماط العمارة الصحراوية على مر تاريخ الاستيطان البشري فيها، ابتداء بالعمارتين الإفريقية والبربرية واليهودية ثم العمارة الإسلامية بنوعها البرمكية و العربية، يتأكد لنا أن العمارة ليست وليدة البيئة التي ولدت فيها فقط. لذا نستطيع القول، أنه طالما لكل مجتمع طريقته في الحياة وأسلوبه الخاص في

العيش يخضع لعوامل بيئية وحضارية متغيرة، فإنه يكون للفرد وللمجتمع على حد سواء الوظيفة النفسية والاجتماعية المراد تلبيتها، وعليه يجب على فن العمارة تلبية تلك الاحتياجات، ومن هنا يعمل الفنان أو المعماري جاهدا للعثور على الطريقة المثلى لاستيفائها، هذا فالتغير في أي عامل من هذه العوامل المؤثر من عصر لآخر كالدين أو السياسة أو الاقتصاد يتبعه تغيرا في شكل العمارة، فالديانة اليهودية ومقتضياتها الشعائرية والطقوسية والروحية ليست هي مقتضيات الدين الإسلامي وشعائره، ناهيك عن العمائر الدينية كالمعابد والأضرحة التي تترجم بصدق الوظائف التي جاءت من أجلها والعقيدة التي تحركها، وما قيل عن الثقافة يقال عن السياسة فالتغير في أي عامل من هذه العوامل يتبعه بالضرورة تغيير في الحياة الاجتماعية، الأمر الذي يستلزم تغيير في الشكل المعماري كي يستجيب لمتطلبات هذا التغير الاجتماعي.

لكن مهما تعددت وتنوعت العمارة القصورية على مراحل نتائجها عبر السنين، فإنها تشترك في سمات عدة، منها استعمال المواد المحلية في البناء، الطين والحجارة، وإنها متكيفة مع البيئة ومنسجمة مع الوظائف التي تؤديها، لذلك توصف بالعمارة الطينية، العمارة البيئية أو التقليدية، وكذا العمارة

المراجع والمصادر باللغة العربية:

- 1- البكراوي محمد بن عبد الكريم ، درة الأقلام، مخطوط موجود بخزانة تمنظيط، الورقة الثانية، الوجه الأول.
- 2- بوعلالة جلول، قصر تمنظيط دراسة أثرية ومعمارية، مذكرة تخرج لنيل شهادة مهندس دولة في الهندسة المعمارية، المدرسة الوطنية للهندسة المعمارية، قسم الآثار، الجزائر، 2005.
- 3- جاسم الدباغ، مداخلات الملتقى الوطني حول المجال والسكان، يوم 14-15-2002، جامعة وهران، السانية، دار الغرب للطباعة والنشر، 2003.
- 4- حاج أحمد الصديق، التاريخ الثقافي لإقليم توات، من القرن 11هـ حتى القرن 16 (ق 17، ق 20)، دار الثقافة لولاية أدرار، 2003.

- 5- فرج محمود فرج. إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. الجزائر، 1977.
- عبد السلام بن سودة المري، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج1، دار الكتاب، الدار البيضاء ط، 1960.
- 6- مقدم مبروك، الاستيطان والتوطين بأقاليم توات، نماذج حول إقليم توات وقورارة وتيدكلت، دار الغرب للطباعة والنشر، وهران 2003.
- 7- مارك كوت، اختيار فضاء اختيار مجتمع، المدينة وتنظيمها الحضري، مجلة مارينو، سنة 1999، العدد، رقم 03.
- 8- مصطفى أبوضيف احمد، اثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبنو مرين. (524- 876هـ/ 1130- 1472م) الطبعة الأولى، الدار البيضاء.

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- P. Devoirs, le Touat étude géographique et Médicale archives de l'instituteur. T.XXV.N°3-4. Septembre-De'cembre.alger1947.P224
- 2 - NADIR MAROUF، l'imaginaire historiographique entre conjectures et réalités ، ou le problème des sources : à propos de l'établissement humain en milieu saharien. Insaniyat, revue algérienne d'anthropologie et de sciences sociales N°2 AUTOMNE -1997، P159